

بالروم ويمحق جموعهم محققاً. وليس شعر المتنبي في انتصارات سيف الدولة قصائد طنانة نسمع فيها ضليل السيوف فحسب، بل كثير منها ملاحم حربية تزخر بالحنق الشديد على أعداء العرب وما ينبغي أن يذوقوه من الموت الذي لا يبقى ولا يدر. وتنبه أبو شامة لهذه المدائح البطولية الحربية في كتابه الروضتين الذي وصف فيه معارك نور الدين وصلاح الدين مع الصليبيين، فكل معركة لها يسرد أحداثها تاريخياً، ثم يذكر القصائد الرائعة التي تجسد بطولتها وبطولة جنودها، وتنصّبها علماً مرفوعاً أمام الشباب العربي حتى لا يبقوا من الصليبيين باقية، وما زالوا يقتلون فيهم ويأسرون حتى خرجت بقاياهم نادبة مولولة إلى البحر المتوسط وما وراءه. ولمصر دور عظيم في هذا المجد الحربي وفي مجد الظاهر بيبرس الذي هزم التتار في موقعة عين جالوت هزيمة ساحقة، وهي مجسمة في أشعار مدّاحه من كبار الشعراء المصريين وغير المصريين. ومن من ريب في أن الشعراء أقاموا لأبطال العرب بمدائحهم على مر التاريخ تماثيل لا تبلى أبداً. وليس بيننا من يقدر المديح حين يكون رياءً ونفاقاً وزلفى، وليس بيننا من يعنى به، غير أن فرقا. بل فروقا واضحة، بينه وبين هذا المديح الرفيع الذي يحمل لنا مجد العرب الحربي، والذي يقيم لهذا المجد تماثيل خالدة، ولسنا من الحمق والغفلة بحيث نحطمها وندمرها لقولة قائل: إن المديح كان شعر تكسب وتسؤل، كلمة يرسلها دون معرفة حقيقية بشعر المديح وتاريخه وتطوره.

ولو أن من ينعى على شعرائنا مدائحهم قرأ شيئاً منها لعرف أن شاعرها الأول الجاهلي ضمّنها موضوعات إنسانية مهمة، فقد كان يبدؤها بذكريات حبه في الشباب أو بالتشبيب والغزل، وهو بذلك يريد قاصداً أن يفتتحها بالحديث عن الحب: العاطفة الإنسانية الخالدة، حتى يجذب سامعيه إليه، وحتى يجدوا عنده شيئاً من الغذاء العاطفي يتغذون به إذ يحدثهم عن تلك العاطفة السحرية العجيبة ومدى تأثيرها في نفسه. ويعرض الشاعر المادح مشاهد الطبيعة في رحلة صحراوية له لا تزال تروعنا بما فيها من بساطة بدوية وصور لطيفة. ويضمّن قصيدته مجموعة من إدراكاته لندياه في طائفة من الحكم والخبرات من شأنها أن تصقل فهم سامعها للحياة وتجعله أكثر قدرة على التبصر والحكم السليم على